تشكيل الذات في رواية الصحراء المسطحة لمحمد ديب
بين التضاد والتيه

The formation of the self in Mohamed Dib's The Flat Desert Between Contradition and Disorientation

زينب فرحي*

مخبر الدراسات الأدبية والنقدية، جامعة البليدة2-الجزائر

elz.ferhi@univ.blida2.dz

عائشة العشمي

جامعة المدية –الجزائر **laachemi-aicha@univ.medea.dz**

تاريخ الإرسال:	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2025-02-25	2025-11-11	2026-01-29

ملخّص: تبحث هذه الورقة البحثية في إشكالية تشكيل الذات وعلاقتها بالتخييل السردي، وهي من أبرز الإشكالات التي يبحث فيها الأدب بكل أنواعه وأجناسه، ومادام الأدب فن من فنون التعبير عن الذات فإن الكثير من الأدباء الذين حاولوا ملامسة هذه العلاقة عبر فنيات التخييل ليكتبوا الذات وتركيباتها ضمن نظام أنطولوجي معقد، وهو ما عمل عليه الكاتب الجزائري محمد ديب في رواية الصحراء المسطحة أين سعى إلى الغوص في عمق الذات وتمثيل رحلتها الوجودية ومساراتها المختلفة.

كلمات مفتاحيّة: الذات؛ الوجود؛ الصحراء؛ التخييل.

Abstract: The problem of the relationship between the self and existence is one of the most prominent problems philosophy investigates in all its directions and trends. Sinse literature is an art of self-expression, many writers have tried to touch on this relationship through the techniques of imagination to write about the self and its structures within complex ontological system, which is what the Algerian writer Mouhamed Dib worked on in his novel The flat desert , where he sought to dive into the depths of the self and represent its existential journey and its various paths.

* المؤلف المرسل

Keywords: Self ; Existence; Desert; Imagination.

1-مقدمة: تعد الكينونة بوصفها الحضور الأنطولوجي للذات من أبرز الإشكالات التي أرّقت الأدباء والمفكرين، أين تحول الفن بوصفه أداةً لتشكيل الوعي إلى آلية تشكيلية تصور رحلة البحث عن الذات في غمار الصراعات الوجودية التي يتصارع معها الفرد المعاصر من تضارب قدراته وإمكاناته والحتميات القدرية في سبيل شق طريقه لوحده في هذا الوجود والخوض في تجارب ومنعطفات تحول مسار هذا الطريق وتغير ملامح هذه الرحلة، ليتحول التخييل هنا إلى آلية تصوير لصراعات الفرد مع الحتميات الوجودية وإلى عالم إبداعي يتمازج فيه الواقع بالخيال والحقيقة بالوهم يجد فيه الإنسان نفسه تائها في وجود مكنّه بالأسرار والخفايا.

هي الرحلة التي صورها الروائي الجزائري محمد ديب عبر روايته " الصحراء المسطحة" ضمن رؤية سردية متمازجة بين الداخل والخارج، و إيقاع متداول بين الوصف والسرد، أين عمل على تحويل الصحراء من فضاءٍ فارغ إلى قالبٍ مخيالي يحمل أبعادًا وجدانيةً مرتبطة بغرابة المكان يشكل مبنى حكائي تتداخل فيه الذات بالموضوع مما يمنح المعنى للحضور الشكلاني للذات داخل الرواية ويضيف نقلةً وجودية في علاقة هذه الذات بالمكان، فالحياة بوصفها مسارًا وجوديًا تمضي فيه الذات رحلتها في سبيل البحث عن المعنى تعرف منعرجات ومنعطفات قد تُدخل الذات في حالة من التيه، هذه الرحلة التي كتبها محمد ديب في روايته الصحراء المسطحة والتي جسّد فيها ترحال الفرد وصراعه بين السداد والتيه في سبيل تكوين ذاته تضع القارئ أمام إشكالية من شاكلة كيف يجسد التخييل مركبات الذات الإنسانية داخل القالب السردي ؟ وللإجابة عن هذا الإشكال يتفرع هذا العمل في البحث عن العلاقات المترابطة بين المكان والذات المتجاوزة حدود الواقع إلى عمق التخييل السردي.

2- متخيل الصحراء بوصفه مكونًا وجوديًا:

1.2 التخييل كآلية لتشكيل الواقع: تمثل الصحراء قالبًا تخييليًا يضع فيه المبدع أسئلته الوجودية ويرتحل من خلالها نحو تكوين ذاته عبر علاقتها بالمكونات الأنطولوجية من زمان ومكان في رحلة البحث عن المعنى إذ "أن وجود الإنسان مرتبط بعالمه المحيط"[1]، وهي رحلة الشخصيتين المتخيلتين في نص الكاتب محمد ديب، آغباغ وسيكليست اللذان يجولان تيهًا في صحراءٍ مجهولة للبحث عن منبع المعنى، حيث يصادفان في طريقهما آثارًا ومعالماً يحاول آغباغ فك طلاسمها وفهم ما نقش عليها من رموز علّه يفك لغز الوجود، بينما يتبعه سيكليست بكل عبثية محاولًا الوصول إلى نهاية الرحلة، وهي النهاية التي ظلت مفتوحة لتسمح للقارئ بتخيّلها وتأويلها حسب رؤاه الفكرية وفلسفته الوجودية، إذ يخلق القارئ تأويلاته حسب ما يتوافق وأفقه المتوقع. إذ يعد التخييل جوهر الإبداع الأدبي، حيث يحوّل العمل السردي من نقلٍ جافٍ إلى تحفة أدبية مجسدة بفنيات التأثير والتحريك، فيعمل على توسيع أفق القارئ عبر طرح أسئلة وجودية تفكك عقد الواقع وتحول النص الأدبي من إلى فضاءٍ للتجربة الإنسانية أين يمتزج الجمال الفني بالعمق الفكري. وهذا ما عمل عليه الكاتب محمد ديب في تصويره لصراع الذات مع الحتميات الوجودية في محاولة للانفتاح نحو فضاء من الحرية ولتخييل الحقيقة في تبادلية للأدوار بين الواقع والتخييل يبقى من خلالها القارئ "مشدوداً إلى العجيب لأنه متخيل ولأن الرواية هي مكان الممكن ونهائية الممكنات"[2] حيث يوصف خطاب الرواية بأنه جنس من التخييل و"التخييل في معنى من معانيه نوع من المخادعة أو الإيهام الفني"[3] حيث يحاول الكاتب بناء تشكيل لغوي لواقع متخيل يصنع فيه شخوصًا وأحداثًا من خلق إبداعه، يكون فيه السرد قادرًا على التلاعب بمخيلة القارئ أين يشد الراوي خيوط الروي بأصابعه السردية يرفع الفواعل السردية

واحدًا بواحد ويقبض على الخيط الدرامي تتمازج فيه الاستباقات بالاسترجاعات أين يفقد المتلقي قدرته على رؤية الحقيقة، فيتوه في سراب المتخيلات وينفتح على التأويلات المتعددة واللانهائية لهذا الإيهام الذي خلق به محمد ديب تشكيلة روايته والتي استحضر فيها الصحراء بقساوتها وغرابتها وسحرها الطبيعي والفكري عبر التخييل الفني الذي يمكِّن المرء من مواجهة تحديات الواقع وخلق عوالمًا موازية لكينونته. ولعلّ هذا الاستحضار الذي ينطلق من خيال الراوي ما هو إلا محاولة لمحاكاة اللا–استقرار الذي يخالج الذات الإنسانية، "فالرواية في الأساس منتوج متخيل وقاعدة اجتماعية"[4] يسعى من خلالها الكاتب إلى تقريب صورة الواقع إلى ذهن القارئ عبر جماليات التخييل أين يخلق عالمًا افتراضيًا يهدم الحدود الفاصلة بين الخيال والواقع، ليجعل من الصورة السردية عالمًا فنيًا لرحلته الوجودية وهو ما يتجسد في هذا المقطع السردي من الرواية: **ثم تعيد تشكيل الصحراء،لترجع كما كانت، من جديد تحاكي فضاء لا يعرف البصر فيه أين يستقر وتجمعها كما فعلت للتو، فتبتلع تلك التي ظهرت قبل لحظة لتؤسسها وتحافظ عليها."**[5]

إن هذا التشكل المتكرر بفعل الحركات الطبيعية والعواصف الرملية الذي يجعل الصحراء متشكلة في حلقات مكررة ومتشابهة تماماً كما هي طبيعة الحياة التي تتشكل من حلقات زمنية مكررة ومترابطة فيما بينها تشكل مساراً مجهولاً لوجود الذات، أين تتشكل الصحراء كفضاء فسيح لامتناهي يوحي بعدم الثبات والرهبة والحرية بتموجات رمالها و فساحة سمائها، وبهدوئها المخادع وغرابتها الساحرة صورة للوجود المتشكل في الواقع المتغير والمتكرر في الآن ذاته وهو ما يبحث فيه الكاتب عن تيه الذات وسبل تكوينها أين منح الكاتب محمد ديب الصحراء دلالات أنطولوجية حيث أنّ "علاقة الإنسان بالأرض (التراب) أكثر من أن تكون تاريخاً وعادةً وألفةً وعبورًا، إنها علاقة

كينونة وصيرورة"[6] فجاءت كحيز جغرافي يحمل دلالات البحث عن الذات الإنسانية في شكل ترحال شخصيتي آغباغ وسيكليست بحثًا عن بئر ماء يرتويان منه بعد نهاية الحرب، هي الحرب التي تخوضها الذات في خضم هذا الوجود، أين يصل الإنسان إلى مرحلة من الانقسام الذاتي بين رغباته وأحكامه، بين ما يريد وما يجد، بين الخيال والواقع.

2.2 الصحراء كوجود متخيل: لقد اعتمد الروائي على التخييل باعتباره شكلاً من أشكال تحقيق الوجود للإنسان والذي يعد آلية من آليات تحقيق الذات، أين عمل على تقديم الصحراء كمتخيل وجودي تتصارع فيها الأنا بكل متضاداتها مع منعطفات الحياة التي تغير المفاهيم والمعتقدات المكنونة في روح وفكر الذات إذ يقول:

ما يميّز الصحراء هو أنك أينما ولّيت وجهك، ومهما كانت المسافة التي تقطعها، فإنّك دائمًا تظل في مكانك، وسط الصحراء."[7]

فأينما توجهت في ترحالك الوجودي تظل دائمًا تحوم في ساحة الحياة بحثًا عن كينونتك ورغباتك، فالتخييل هنا قد سمح للروائي محمد ديب بخلق رحلة نحو عمق الذات وتمثلات الأنا في سبيل البحث عن جدوى السير في الوجود/ صحراء لامتناهية المعالم والأحداث، وإتباع سرابٍ واهمٍ لا يمكن الإمساك به أو الوصول إليه، أين تظل هذه الذات تحوم في سراب من الرمال لتكتشف جدوى وجودها فيقول:

أم أننا نبتعد عن كلّ الشموس؟ كما لو أنني قد قطعت تلك المسافة اللّانهائية، وها أنا الآن أعود من جديد، أصل إلى هنا أمام هذه اللّانهاية مجدداً

لا نهائية الرمال لكن دون التحرك من مكاني. أو بصيغة أخرى، نحن أناس آخرون حلّوا محلّ أناس آخرين، جاؤوا قبلنا وكانوا نحن أنفسنا."[8]

فهذه الرحلة التخييلية التي يخوضها ديب في روايته تلامس الحدود الذاتية لكل فردٍ وتجاربه الخاصة، ووحدها العملية التخييلية ما يُمَكّن الفرد من البحث في أغوار الذات وإعادة استكشافها والتأمل في مسارها الأنطولوجي الحافل بالمنعرجات القدرية التي تشكل مسارات متعددة ومختلفة وتُضيِّعه في فضاءات لا تمتلك وجهات ولا أثر، إذ مهما تاهت الذات بين تجاربها الخاصة ومسارات الآخر تعود في كل مرة إلى عمقها الخاص، حيث يحاول الكاتب في سرديته المتخيلة هذه مقاربة الصحراء بالوجود فتتحول الصحراء بوصفها مكانًا جغرافيًا محددًا إلى صورة مجازية للوجود، حيث تشترك الصحراء مع الوجود في الترحال، إذ في كليهما على الفرد أن يحمل ذاته ويرتحل للاكتشاف وفي كليهما يبحث عن شيء، إن كانت الصحراء تدفعك للبحث عن الماء فالحياة تدفعك للبحث عن المعنى وفي كليهما تبحث عن الوصول.

3-تشكيل الذات بين التضاد والتيه:

1.3 التركيب المتضاد داخل الذات المتخيلة: يرسم محمد ديب الذات بشكل مبعثر ومتشظي في الصحراء/الوجود، فالصحراء هنا صورة للوجود وليست مجرد حيزٍ جغرافي، وإنما تحضر الصحراء في هذا النص كفضاءٍ يؤسس للتشظي والضياع ما يجعل هذه الذات في دوامة دينامية دائمة في سبيل البحث عن حقيقتها أو في سبيل وجودها الفعلي في الواقع والغاية من وجودها، واكتشاف أغوارها وتعرية خفاياها وأوهامها وأفكارها، فتتحول الرواية من مجرد أحداث وحوادث وتفعيل لأدوار فاعلية ضمن علاقات الاتصال والانفصال داخل حيز سردي ضيق إلى فضاءٍ من التأمل والتفكير والتأويل لكشف سراب الواقع وضبابية الحقيقة .

يعمل الكاتب في هذا النص على تقسيم الأنا إلى جزئين في شخصيتي آغباغ وسيكليست اللذان يشكلان التضاد داخل الذات الإنسانية حيث تحضر الذات هنا بصورة

مبعثرة ومهاجرة في حالة من الترحال لأجل البحث عن الحقيقة، إذ آغباغ الرجل العقلاني، المفكر المتأمل والباحث عن معنى وجوده، والذي يرى في كل حركة وسكون لغة دالة تحمل دلالات مضمرة عليه فهمها فهي التي ستوجهه إلى هدفه أو المعنى الذي خُلق لأجله، فالكون عبارة عن علامات وإشارات ذات مدلولات أبعد ما تكون عن الظاهر لذلك عليه هو المتأمل في هذه العلامات استبطان مدلولاتها وكشف مقصدياتها، إنه كعالم الآثار الذي يعتبر الكون خريطة كبيرة عليه تتبع الآثار القديمة ونفض الغبار عنها لفهم ما تركه الأولون الذين مروا من ذات الطريق وتتبع خطاهم للوصول الصحيح، بينما يعارض سيكليست ذلك، إنه العكس من ذلك تمامًا، إنه الجزء المتهور، اللاعقلاني، العبثي الذي لا يرى في الكون سوى صور ومظاهر كونتها الطبيعة بفعل تفاعلها مع الزمن، والذي لا يهتم سوى لتلبية حاجاته المادية التي تفرضها طبيعته الفطرية، فأين الجدوى من خوض رحلة شاقة وقطع طرق مجهولة وقضاء وقت في البحث بين سطور رموز محفورة على الصخور تشكلت بفعل العوامل الطبيعية من عواصف رملية ورياح أشعة الشمس، وإن كان الأولون قد مروا من هذا الطريق ليس من المفروض أن يمر هو أيضا ما ذات الطريق ولا أن يصادف ما صادفوا، وأن كل الرحلة مجرد ترحال عبثي لن يصل به إلى شيء سوى إلى النهاية – الموت ربما– .

هذا التضاد الذي تميزت بها كلا من الشخصيتين، يضاهي التضاد داخل الذات الإنسانية بين العقلانية والتفكّر والعبثية والتهور والذي يشكل الصراع داخل الذات الواحدة، صراع يحتد كلما اشتدت الظروف وتصادفت مع متغيرات مفاجئة تضع هذه الذات أمام مساءلة وجودية. فشخصية آغباغ جاءت كتيمة للذات الباحثة عن حقيقة كينونتها والتي ظلت في استمرارية وحركية بغية الوصول إلى الحقيقة، حقيقة ماهيتها والمعنى من وجودها، بينما جاءت شخصية سيكليست كتيمة للتشاؤم الاستسلام، بل

للعبث فلا شيء له معنى في هذا الوجود لا معنى لعثرات الطريق ولا هدف من هذه الرحلة الوجودية.

"مستعد دائمًا للاستسلام، عد إلى نفس المكان وابدأ من جديد

-لحسن الحظ لا يوجد أحد يراقبنا

-ارجع إلى مكانك وابدأ من جديد

-من ناحية أخرى، توفر الصحراء ميزة إضافية وهي أنك تمشي باتجاه نفسها وبالتالي نحو سوء الحظ"[9]

وهنا أيضاً يعود الكاتب إلى فكرة أن الذات تتمحور حول نفسها، أو أنها تجتر نفسها حين تصل إلى مرحلة لا يعود فيها الخيط بين الواقع والخيال واضحاً جداً، وهو سرّ تعاسة الإنسان حيث لا يصل إلى الإجابة التي يسعى إليها أو يتصورها أو حين تطول المسافة التي يتوجب عليه قطعها ليصل إلى جوهره الخاص.

ولعلّ هذا التضارب في الأسئلة داخل فكر الإنسان هو الذي خلق التضاد، وعلى الرّغم من أن طبيعة الإنسان هي التناقض إلّا أن الكاتب اختار أن يفصل هذه الطبيعة في شخصيتين منفصلتين تناقش إحداهما الأخرى وتطرح كلّ ما يجول ببالها من تساؤلات.

إذا، فالتضاد هنا في الشخصيتين الروائيتين يمثل التضاد داخل ذات الإنسان الواحد، الأول مُصّر على البقاء في الصحراء والبحث عن منبع الماء والذي يمثل الهدف أو الغاية من الوجود أو المعنى الذي تدور حوله حياة الفرد، بينما يتخلى الآخر- سيكليست- عن الترحال لأجل ذلك المعنى أو الغاية ويرى أن الرحلة بأكملها رحلة عبثية لا معنى لها.

2.3 الاغتراب الذاتي والتيه الوجودي في الرواية: إذا كانت الصحراء/ الأرض، هي الأصل أو المنبت للذات الإنسانية فإن الريح، الرمال والشساعة التي تميز هذه الأرض/الصحراء ماهي إلاّ صوراً فنية للوجود الذي ترتحل فيه هذه الذات بحثًا عن حقيقتها بل ولتشكيل كينونتها، فهي رحلة قائمة على الصراع بين ثنائية الوجود والعدم، فحالة الاغتراب الذاتي التي تغرق فيها الشخصية هنا تمثل الانفصال وفقدان التواصل بين الذات والحقيقة، أين ينشأ الصراع بين الذات والوعي والعالم، بين الأحكام الواقعية والاختيارات الحرة مما يدفع بالذات إلى الانطلاق في رحلة إعادة اكتشاف الذات وتحريرها من قوقعات العالم الخارجي .

وتخلص الشخصية في النهاية إلى أنه من أجل الوصول إلى الحقيقة لابد للذات أن تحترق بنيران التيه، والأسئلة التي لا تأتي إجابتها بسهولة هي الأسئلة التي تكشف عن خفايا الوجود، فيقول:

تنهشني مشاعر والتي لا يسعني الجزم إن كنت تتذكر الأمس أم على العكس، أنت أيتها الذكريات لست سوى هواجس، مازلت موجوداً:

ألستُ أنا، قبالة ذات السياج، جاثياً كما أُمرتُ؟ ومع ذلك أستمر بكوني روحاً هائمة، لا أتوقف عن الوجود، حيث أكون وحيث لا أكون. روح هائمة، روح تبحث عن ذاكرتها، وأصابعي تتشبث بعدُ بالسياج. يتهيأ لي، بينما أنظر، أنه بوسعي أن أسمع وأفهم كل شيء بعينيّ. ثم يهمس في أذني: " من أين أتيت؟"... سرعان ما أدركت أنها إجابة لا تنصف السؤال ولا تدحضه. كما لو أنه أنا كإجابة أخرى،بل وأكثر. ويظل السؤال مطروحاً..."[10]

وبما أن الاسم يعد العتبة الأولى لتعريف الذات عن نفسها فإن التشكيك فيه يعني التشكيك في حقيقة الذات وفي معرفته لها فمن يكون هو دون اسم وما هي هُويته لو كان بلا اسم؟ هل كونه مجهولاً يعني أنه عدمًا؟

هذه الأسئلة التي يطرحها الكاتب في صوت شخصيته آغباغ والذي ينكر اسمه تارة ويشكك فيه، ويتساءل عن هُويته لو لم يكن آغباغ كاسم.

وقد تكرّرت المقاطع التي تجد فيه الشخصية نفسها متنازعة ومتجاذبة ما بين الحقيقة والوهم، تارة تدرك أن لها اسمها وانتماءها الخاص وتارة تشكك في كلّ شيء، فها هو هنا يعيد مراراً إنكار اسمه الذي هو عتبة وجوده:

– سيد آغ – بار.

يسمع اسمه يتكرر مراراً، في البداية لا يتذمر من الأمر، يصرّح:

– لم يمر بنا أحد خلال الثلاثة والعشرين يوماً التي قضيناها هنا.

ثمّ يغيّر رأيه

– كم مرّة علي أن أقول لك، لا وجود للسّيد آغ – بار هنا.

– أبداً، سيد آغ – بار كم يوماً قلت؟

هزّ آغ – بار كتفيه:

– ثمانية عشر يوماً يا صديقي، ثمانية عشر. افتح أذنيك."[11]

إن الأسماء التي تحضر في هذا المتن السردي تحمل دلالات مضمرة توحي إلى ذات المعنى السابق، فلفظة سيكليست بالفرنسية توحي في معناها العربي إلى راكب الدراجة؛ وبالتالي فإن هذه الشخصية ترمز إلى استصعاب السير في هذه الرحلة/الوجود تماماً كما يستصعب الدراج المضي بدراجته في الطريق الرملي الذي تغطس فيه، كما

أنّ ذات اللفظة يشتق منها لفظة سياكل بمعنى الدورة أي بدورة حياة الإنسان التي تدور في حلقات متماثلة لا جدوى من دورانها ولا نقطة نهاية لها.[12]

أما لفظة آغباغ أو HagBar باللغة الأجنبية فإن الجزء الأول منها Hag يرمز إلى كلمة الحاج بالعربية أما Bar فتعني في اللغة الانجليزية الحانة وبالتالي فإن هذا التضاد الدلالي يوحي بالتيه داخل الذات أولا بين التدين والفسوق وهو ما يجول في النفس البشرية التي تتمايل بين الرهبنة والتعربد، وبالتالي فإن البعد الديني حاضر في هذه اللفظة. وهذا التذبذب يؤرجح الذات بين الإيمان بالغيبيات ومحاولتها الاستناد على شيء غير حسي أو شعور كالإيمان بشيء لا يُرى ولا يلمس ولكنه موجود بطريقة وبشكل ما وبين المتعة بملذات الحياة المسموحة منها والممنوعة، إن هذا التضاد الموجود في تركيبة الاسمين ما هو إلاّ التشكيل اللغوي للحضور الأنطولوجي للذات والتركيب المتناقض الذي يولّد الصراع بين الخطأ والصواب وبالإيمان بالوجود والعدم، ونرى هذا الصراع في محاولات الذات لإنكار وجودها من خلال المقطع السابق

فهذا الإنكار نجده تجاوز الذات مع نفسها إلى علاقتها بالزمن فتارة يخيّل له أن الزمن الذي قضاه في الصحراء يطول وأحيانا يقصر وهذا ما يظهر في المقطع السابق، أين يتحول الزمن إلى جزء من الكينونة الذاتية فمن تكون هذه الذات في هذا الحضور الزمني أو في حضور زمني آخر.

تمد رواية الصحراء بلا منعطف يدها إلى الفلسفة الوجودية في محاولة لمعالجة موضوع الاغتراب الذاتي في الوجود؛ فالمغترب "ذاتًا لا تعرف من تكون أو ماذا تريد"[13] وقد عبر هنا الكاتب عن تيه الإنسان وتساءل عن مصيره بأسلوب فني يحاور الذات عبر الأسئلة التي تطرحها الشخصيتين، فأسلوب الرواية القائم على التخيّيل بشكل

أساسي أعاد من خلاله الكاتب صياغة تساؤلات الإنسان حول الحياة والموت وأسرار الكون الذي يحيط به عبر تأملاته الفلسفية العميقة فيقول:

"– سيد آغ بار بالطبع إنه أنا، لا يمكن أن يكون إلا أنا"[14]

وهذه إحدى اللّحظات القليلة التي توقن فيها الذات أن اسمها هو بداية سر وجودها، وأنه العتبة الأولى لحضورها الأنطولوجي المثير للتساؤلات اللانهائية ولتجارب عجيبة متعددة، وأن البداية من أي شيء هي التي تفسر جوهره، وعليه فبداية المتاهة هي التي ستؤدي إلى حلها في النهاية فيقول:

– حسناً، هاهو ذا: تخيل غرفة مليئة باللّاشيء، جدرانها من فراغ، بقدر ما يسعك تصوره، ليس بها حتى باب في أي جهة. أنا موجود بالطبع بين هذه الجدران غير الموجودة، والتي تمنح انطباعاً بأنك مسجون داخلها على الرغم من أنك لست كذلك. انطباع غريب، إنك تعي ما أعنيه. لا أدري إن كان المرء يظل ينتمي إلى هذا العالم حين يحلم. في هذه الغرفة نفسها، بجدارنها التي أعتقد أنها جدران، والتي لا يسعك أن تقسم أنها موجودة، وأنا هناك بداخلي ذاك الشعور الغريب بعدم وجود شيء هناك، والذي يمكن القول أنه سريع أيضاً. لماذا: لأن هناك شيئاً ما، جسم لم انتبه لوجوده حتى اللّحظة. مثلما يحدث حين يكون كل شيء واضحاً أمامك، ومع ذلك لا يخطر ببالك أن تتأمله."[15]

يوظف الكاتب أيضاً فكرة المكان هنا ليظهر زئبقية الذات، لأنها تعي نفسها وفي الوقت ذاته لا تعيها، فشخصية سيكيلست التي تحلم بأنها مسجونة بين جدران غير مرئية تتحدث عن المكان وكأنها تقول أن الحقيقة التي يبحث عنها المرء موجودة أمامه ولكنها غير مرئية تماماً، وأن الرؤية تحتاج إلى تفسير وتحليل وبحث مطول كي يحصل الفهم الكلي لتلك الحقيقة فيتحول المكان إلى فضاء لا يمكن ملامسة حدوده، المكان

الذي يضع الذات في قالب يتوافق مع هذا المكان ويتساءل بشكل مضمر حول كينونته خارج هذا المكان، وحول حقيقته لو كان في مكان مخالف.

إن اجتياز صحراء متخيلة أو التراجع عن هذه الرحلة ليس سوى دلالة على صراع الإنسان بين التمسك بالحياة والوجود كما هو حال شخصية آغباغ وبين الاستسلام للمقادير كما حال رفيقه سيكليست الذي يحاول إقناعه أن بئر الماء/ منبع المعنى لا وجود له وأنه يتوهم وجود معنى من هذا الترحال وأن عليهما العودة وإيجاد أناس يرافقونهم نحو الخروج من هذه الصحراء، بينما يُصر الأول على الاستمرار في البحث عن منبع المعنى وفهم الطلاسم الموسومة على الأطلال، وحتى بعد افتراق الرفيقين يظل آغباغ مؤمنًا بأفكاره، إذ "لا يوجد شيء في العالم ينجح في مساعدة الإنسان على الاستمرار في الحياة حتى في أسوء الظروف أكثر من معرفته بأنه يوجد لحياته معنى"[16] وذلك ما كان يمنح آغباغ القوة للمضي في رحلته فقط لأجل الوصول إلى المعنى المنشود، وحتى مع افتراقه عن رفيقه يعوضه بصوت مجهول يخاطبه، يسأله ويجيب وفي أحيان كثيرة نجده يقف عاجزاً أمام أسئلة الصوت المجهول مما يظهر عجز الإنسان عن الإجابة على بعض الأسئلة الوجودية والوصول للحقيقة الكاملة.

كما يوحي هذا الصوت المجهول والغريب إلى الصراع القائم بين صوت العقل والقلب؛ الأول الذي يُحكم الواقع والظاهر وتماشيه مع المعرفة اليقينية والثاني الذي يميل إلى إتباع الرغبة رغم عدم وضوح أصلها ومآلها.

تنتهي الرواية نهاية مفتوحة بافتراق الرفيقين في رحلتهما، أين يعود سيكليست أدراجه ليجد مخرجًا من الصحراء لكنّه يتفاجئ بظهور قوم غرباء يطلون أوجههم بالطين الأبيض، طين خُلِق منه ويعود إليه، فرغم خوفه منهم إلا أنه يتبعهم استسلامًا لمصيره

المحتوم، إنه المصير الذي ينتظر الذات مهما طالت رحلتها الوجودية، بيد أن رفيقه آغباغ يواصل سيره وتتبعه للطلاسم المحفورة على الصخور أملًا في الوصول إلى منبع المعنى[17] والذي يدفعه صوته المجهول أو إيمانه نحو الاستمرار والبحث والتأمل.

4-خاتمة: إن البحث في الذات بوصفها موضوعاً وجوديًا يتطلب الخوض في أعماقها والانزلاق عبر منحدراتها وتعرية وجوهها المتعددة، وقراءة تجاربها التي تواجه في رحلتها الفردية التي تسعى من خلالها إلى اكتشاف معنى وجودها أو خلق ذلك المعنى عبر خوض غمار المجهول، والذي تمثل في رحلة كل من آغباغ وسيكليست في صحراء مجهولة من تخييل الكاتب محمد ديب الذي سعى من خلالها إلى الغوص في أعماق الذات الإنسانية والكشف عن أقطابها المتعددة وتجلياتها في شكلِ سردٍ مُتخيل خلق منه حضور لغوي لمتضادات الذات ورسم من خلاله صورة للوجود الواقعي، أين استطاع بمخيلته الإبداعية تحويل الصحراء من فضاءٍ جغرافي إلى فضاء متخيل وجودي معقد رغم ما تحمله من وضوح ظاهري وفساحة مكانية إلا أنها تكشف عن تعقيداتها في كل خطوة، تتلاعب بذهن الذات ورؤيته عبر خلق سراب من الوهم أو عواصف من الرمال التي تحجب الرؤية أو التمويه في الاتجاهات فيفقد الإنسان بوصلته نحو ذاته مما يضطره إلى مواجهة تضادياته المتعددة والتيه في منعطفات الحياة الكثيرة إلى أن يصل نقطة النهاية والفناء الحتمي .

- قائمة المراجع:

1- أحمد البيوري، في الرواية العربية(التكوين والاشتغال) شركة النشر والتوزيع، المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2000

2-أدونيس، موسيقى الحوت الأزرق(الهوية-الكتابة-العنف)، دار الآداب، بيروت، ط1، 2002

3- حسين خمري، فضاء المتخيل، مقاربات في الرواية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2002

4- فرانكل فيكتور، الإنسان يبحث عن المعنى، تر: طلعت منصور، دار القلم، الكويت، ط1، 1982

5-مارتن هيدغر، الكينونة والزمان، تر: فتحي المسكيني، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط2، 2013

6-charles Haroche, Les languages du roman, les éditeurs français, 1976

7-Mouhamed Dib, Le Désert Sans Détour ,Apic Edition, Alger, Algerian,2020 .

8-Schachtel, H , An alienated concepts of identity, journal of Humanistic psychology,USA, 1961,Vol 1.

الهوامش والإحالات:

[1]-مارتن هيدغر، الكينونة والزمان، تر: فتحي المسكيني، دار الكتاب الجديد، ط2 ، 2013، بيروت، لبنان، ص137

[2]- أحمد البيوري، في الرواية العربية(التكوين والاشتغال) شركة النشر والتوزيع، المدارس، الدار البيضاء، ط1، 2000، ص32

[3] -Charles Haroche, Les langagues du roman, Les éditeurs français réunis, paris, 1976,p53

[4]-أدونيس، موسيقى الحوت الأزرق(الهوية-الكتابة-العنف)، دار الآداب، بيروت، ط1، 2002، ص264

[5] -Mouhamed Dib, Le Désert Sans Détour ,Apic Edition, Alger, Algerian, p49

[6]- حسين خمري، فضاء المتخيل، مقاربات في الرواية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2002، ص78.

[7] -Mouhamed Dib, Le Desert Sans Detour, Apic Edition ,p 69

[8] -ibid, p 47
[9] -ipid, p 32
[10] -ipid , p67
[11] -ipid, p40
[12] - ipid, p32
[13]–فرانكل فيكتور، الإنسان يبحث عن المعنى، تر: طلعت منصور، دار القلم، الكويت، ط1، 1982، ص78
[14] - Mouhamed Dib, Le Desert Sans Detour, A Edition, p32
[15] -ipid, p52
[16] -Schachtel, H, An alienated concepts of identity, journal of humanistic psychology, 1961, vol 1,p 110.
[17] -Mouhamed Dib, Le Desert Sans Detour, A Edition, p10